١- فِي الذِّكْرِ

الفصل الأول

بين يدى فَاذكرونى أذكُرْكم

إجمال
فى بيان الطريق إلى الله

يقول الله تعالى فى سورة الزمر - تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل ليلة :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال :

« ما أحب أن لى الدنيا ومافيها بهذه الآية :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ﴾

وجاء رجل - كما ورد فى مسند الإمام أحمد - إلى رسول الله ﷺ : شيخ كبير يدّعم على عصا له فقال :

يارسول الله ، إن لى غدرات وفجرات فهل يغفر لى ؟

فقال ﷺ :

« ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ »

قال : بلى وأشهد أنك رسول الله .

قال ﷺ : قد غفر لك غدراتك وفجراتك.

إن الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يفتح أبواب مغفرته ورحمته على مصاريعها ، إنه يرجى عباده حتى لاييأس أحد من رحمته .

﴿ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾

﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾

والجو الإسلامى كله مفعم بفتح أبواب المغفرة والرحمة ..

فالحج المبرور مثلا يخرج الإنسان من ذنوبه ، حتى يصبح فى البراءة منها ، كيوم ولدته أمه .

ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه ، والإسلام يجبّ ماقبله .

وهذه الآيات الكريمة من سورة الزمر ، تبدأ ببيان رحمة الله الواسعة ، ومغفرته الشاملة . ثم تأخذ فى رسم الطريق لذلك ، فيقول الله سبحانه :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم ، وأسلموا له ، من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون ﴾ .

والطريق إذن إلى مغفرة الله ورحمته إنما هو التوبة الخالصة النصوح ، وهى الإنابة إلى الله سبحانه ، أى التوبة فى أسمى درجاتها ، وإسلام الوجه لله سبحانه .

وبعد أن يبرأ الإنسان من ذنوبه ترسم له الآية التى تتلو ذلك طريقه :

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون ﴾

وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو القرآن الحكيم - إنه : ﴿ يهدى للتى هى أقوم ﴾

وهو مهيمن على غيره ، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتب السماوية .

ثم يتلو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الإنسان الذى لم يتب . أو الذى تاب ولم يتبع :

﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين .

أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ .

وكل ذلك لايجدى ، والرد عليه حاسم من قبل الله سبحانه الحكيم العليم :

﴿ بلى : قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة :

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾

لاشك أن فيها مثوى للمتكبرين ، مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم فى الكبرياء والمعاصى وتفاوتهم فيها .

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التى ترسم المنهج وتبين المآل والمصير ، ببيان مآل ومصير الذين تابوا واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لايمسهم السوء ، ولاهم يحزنون .. ﴾

مسئولية

يقول الله تعالى :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾

وهذه الآية الكريمة يصفها رسول الله ﷺ ، بأنها « الجامعة الفاذة » . ذلك أنها عامة شاملة ، وأنها عميقة دقيقة .

ولقد روى الإمام أحمد ، عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه هاتين الآيتين .. فلما سمعها قال : « حسبى ، لا أبالى أن لا أسمع غيرهما » .

الآيتان تحددان المسئولية تحديداً لالبس فيه ، والجزاء مرتب على المسئولية :

فإن عمل الشخص الخير فإن جزاءه يكون الخير.

أما إذا عمل الشر فالشر جزاؤه.

ويقول الله سبحانه :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾.

والقرآن الكريم فى هذا الموضوع يبين أنه :

﴿ لاتزر وازرة وزر أخرى ﴾ ويفيد أنه :

﴿ ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾.

وقد أبان القرآن الكريم عاقبة عمل الخير ، وعاقبة عمل الشر.

يقول الله تعالى فى جانب الخير :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾.

وفى هذه الآية الكريمة رتب الله سبحانه السعادة على العمل الصالح الذى يقوم على الإيمان.

وهذه السعادة التى عبر الله سبحانه عنها بالحياة الطيبة ، إنما هى سعادة فى هذه الدنيا ، يعقبها سعادة أخروية.

وذلك ماعبر الله عنه بقوله فى الآية :

﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ أى :

ونتيجة العمل الصالح ليس حتماً أن تكون تالية له.

فقد تكون فى أثنائه :

فتكون فى أثناء العمل طمأنينة نفس ، وراحة بال ، وهدوء ضمير .

ويذكر الله سبحانه قوانين الخير ، ومنها قانون التقوى فيقول تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾.

فالتقوى مؤدية إلى الفرج ، والخروج من المآزق والشدائد .

ويذكر الله سبحانه قانون التقوى أيضاً فى صورة أخرى فيقول :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾.

والتقوى إذاً – وهى عمل صالح خالص لوجه الله – تفيد بالنسبة للفرد ، وتفيد بالنسبة للقرى والجماعات .

أما الشر فإن له قوانينه أيضاً التى ذكرها الله سبحانه وتعالى .

يقول سبحانه :

﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾.

والويل : هو الخسران وعدم الفلاح .

إنه يصيب كل مطفف .. إنه يصيب الذى يزيد إذا أخذ ، وينقص إذا أعطى ، ويصيب بالمثل كل مطفف .

إن الموظف مطفف إذا لم يؤد حق الوظيفة على ماينبغى ، والمدرس

مطفف إذا لم يقم بتربية الأمانات التى وكلت إليه كما يجب . والعامل مطفف إذا لم يتقن عمله .

ومامن شك فى أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، والصانع مطفف إذا لم يوف بما عهد إليه ، والتلميذ مطفف إذا لم يؤدّ واجب الدراسة على الوجه الأكمل .

وكل مطفف جزاؤه الخسران والعذاب .

وبعد :

فقد يتساءل إنسان عن أمور الخير حتى يتبعها ، وعن أمور الشر حتى يجتنبها ؟

والأمران حددهما الله تعالى فى كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله ﷺ فى سنته الشريفة .

فإذا اتبع المؤمن بحكم إيمانه ماأمر الله به ، واجتنب مانهى الله عنه فقد اعتصم بالله :

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

لاييأس

يقول الله تعالى :

﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾ ..

إن من علامات صدق الإيمان الثقة المطلقة فى الله سبحانه وتعالى ، فى رحمته ، فى رأفته ، فى عدالته ، فى لطفه ، فى عنايته بالمؤمن ، ورعايته له .

الثقة برحمة الله وفرجه حتى ولو كانت كل الشواهد تدل على أن لا أمل . ولو كانت كل الظروف تشعر بالضيق .

والآية الكريمة التى نحن بصددها تشرح ذلك فى إيجاز واضح ، وفى جمال بديع ، إنه سبحانه ينزل الغيث فى الوقت الذى يظن المحتاجون أن لا أمل فى قطرة ماء وينشر رحمته فى الأجواء اليائسة القانطة ، فينقلب الجدب خضرة يانعة ، ويصير القحط روضات وجنات . وذلك أن من صفاته سبحانه أنه ولى المؤمن ، حميد فى جميع تصرفاته .

إنه يتولى برحمته من حقق العبودية ، وأفعاله سبحانه حميدة دائماً لأنه سبحانه حميد .

وهذه الصورة من الإيمان الواثق بفرج الله ورحمته هى التى عبر عنها سيدنا يعقوب عليه السلام قائلا لبنيه :

﴿ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولاتيأسوا من روح الله ، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾

وهى التى تجعل المؤمنين يلجئون إلى الله دائماً بالدعاء والتضرع فيستجيب الله لهم كلما أخلصوا وجههم له :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فستجاب لكم ﴾ .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ﴾.

والله الرحيم هو الذى يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . وصلة الله سبحانه وتعالى بالإنسان صلة رحمة ورأفة .

ورحمته سبحانه وتعالى تتجلى فى كل ماأسداه سبحانه لعباده من هذه النعم المادية التى لاتحصى :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ .

ولكنها تتجلى فى أجمل مظاهرها فى قواعد الهداية التى أحبها الله لعباده ، والتى يدور عليها درجة سموهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وهى نعمة منبثقة رأساً من رحمة الله يقول سبحانه :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

ورحمة الله فى الهداية أجلى عند أولى الألباب من رحمته فى النعم المادية ، وذلك أن رحمته فى الهداية نتيجتها لمن يتبعوها الأمن والطمأنينة والرضاء والسكينة ..

وهذه الأمور هى السعادة التى يسعى لها من وفقهم الله للسير على هداه .

وهداية الله إذا تبعها الأفراد سعدوا فى دنياهم وأخراهم ، وإذا

تبعها الجماعات أمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم . وعاشوا أعزة بالله وبدينهم .

وهداية الله للأفراد ليست آراء تخطئ وتصيب ، وليست قوانين تظهر التجربة الخطأ فيها والصواب .

وإنما هى العصمة الكاملة ، لأنها تنزيل من حكيم خبير .

وقد ضمن الله سبحانه وتعالى لكل من يلتزمها أن يشمله برعايته ، فلا يقع فى غمرة الحزن والخوف ، وإنما يسير فى نور من توفيق الله ، وفى أمن من حمايته :

﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه بالرحمن ، وسمى نفسه بالرحيم ، وأمرنا أن نستفتح أعمالنا بـ « بسم الله الرحمن الرحيم »

وإن من رحمة الإنسان بنفسه أن يلجأ إلى رحمة الله الكبرى ، وهى هديه سبحانه ، فيستظل فى ظل دوحتها النضرة وهى القرآن الكريم . فينعم من وراء ذلك برضاة الله وبحمايته .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

التجئ إلى الله

يقول الله تعالى :

﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾

إن من أجمل مايفسر هذه الآية الكريمة الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم ، والذى كان أبو إدريس الخولانى رضى الله عنه يرويه كثيراً ، وكان حينما يرويه يجثو رضى الله عنه على ركبتيه احتراماً وتقديساً للحديث ، ثم يبدأ فى ذكره .

عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرّماً ، فلاتظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى : كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك فى ملكى شيئا .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ومما من شك فى أن الإنسان - فى كل أحواله - فقير إلى الله . إنه فقير إلى الله فقراً مطلقاً فى الناحية المادية على اختلاف أنواعها .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

﴿ أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاج فلولا تشكرون ﴾ .

والإنسان فقير إلى الله فى هدايته الروحية :

وإننا لنردد كل يوم مرات عدة .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

والذين أنعم الله عليهم هم الذين اتبعوا هديه ، وعملوا به ، والتزموه .

وهدى الله سبحانه وتعالى يتضمنه القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وإذا كان فقر الإنسان إلى الله فى الجانب المادى فقراً مطلقاً فإن فقره إلى الله فى الجانب الروحى فقر مطلق أيضاً .

وبعد :

فيقول صاحب كتاب التحبير :

« وإغناء الله عباده على قسمين » :

فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله وهم العوام - وهو غنى مجازى - ومنهم من يغنيه بتصفية أحواله وهم الخواص - وهو الغنى الحقيقى - لأن احتياج الخلق إلى همة صاحب الحال ، أكثر من احتياجهم إلى لقمة صاحب المال . .

قد أفلح من زكّاها

يقول الله تعالى :

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾

وتزكية النفس : هى مايريد الدين تحقيقه فى هذا العالم ، ويريد تحقيقه لأجل غايات شتّى :

أولها : أن تزكية النفس كمال إنسانى ، وسمو روحى ، ولا يتأتى هذا الكمال إلا إذا اتخذ الإنسان الطريق السليم .

والطريق السليم للكمال أو التزكية ليس نتيجة اختراع بشرى ، أو ابتداع ذهنى ، أو رسم إنسانى .

فالعقول تختلف وتتعارض - وإنما هو من رسم العزيز الحكيم وقد رسمه الله سبحانه فى كتابه العزيز وبينه فى محكم تنزيله مفصلا واضحاً لالبس فيه .

وقد كان الرسول ﷺ مثلا تطبيقيًّا لهذا الرسم الإلهى للتزكية : لقد كان خلقه القرآن .

وإذا كانت تزكية النفس كمالا إنسانيًّا بالنسبة للفرد ، فإنها جوهر

العوامل فى استقرار المجتمع ، وفى الأمن بين ربوع الوطن ، وهذا هدف ثان من أهداف التزكية .

ومما لاشك فيه أنه كلما زادت نسبة التزكية فى مجتمع ما كان الأفراد فى طمأنينة على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وكانوا بذلك فى محيط من السعادة أكمل وأتم ، وكان مجتمعهم من المجتمعات التى يغبطون عليها .

والهدف الثالث من أهداف التزكية إنما هو النجاة بل النعيم فى الآخرة .

يقول سبحانه :

﴿ جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾.

وسبيل هذه التزكية الأصيل ، وأساسها الراسخ ، إنما هو الإيمان اليقينى الذى يسلم فى ثقة القياد إلى الله ، ويلقى بنفسه فى ثقة وغبطة تحت الراية الإلهية يستظل بظلها ، ويحملها ، ويرفعها ترفرف على الآخرين لينضووا تحت لوائها : أى أنه يؤمن ويبشر بالإيمان وينشره ، آمراً بالمعروف – أى الخير والفضيلة – ناهياً عن المنكر – أى الشر والرذيلة .

فإذا ماتوفر الإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أدى ذلك إلى صلاح الفرد ، وصلاح المجتمع ، والفوز فى الآخرة .

والخطوة الأولى فى طريق تحقيق الإيمان تحقيقاً صادقاً ، والخطوة

الأولى فى سبيل تزكية النفس ، إنما هى الاتجاه إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة التى تفصل بين عهدين :

عهد ليس فيه صلح مع الله سبحانه .

وعهد فيه الصلح مع الله تعالى .

والتوبة الخالصة النصوح تضع الإنسان مباشرة فى مرتبة البراءة ، إنها تغسل الذنوب ، وتطهر النفس ، فتصبح صحيفة الإنسان بيضاء ناصعة ، معدة لأن تكتب فيها الأعمال الصالحة .

وبعد :

فإن التوبة الخالصة النصوح ثرية بالمعانى ، فهى تتضمن :

العزم المصمم على إخلاص العمل لله ، إنها تتضمن نفى الشرك الظاهر والخفى .

وتتضمن :

العزم المصمم على العمل الصالح ، على التقوى ، على طيب المطعم ، على تحقيق مايرضى الله ، والابتعاد عما يغضبه .

ومن أجل ذلك كله يقول الله تعالى :

﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ .

إن الله يحب التوابين

يقول الرسول ﷺ :

«أنا نبىّ التوبة».

والواقع أن الطريق إلى الحق الذى أرسل الله به رسوله إنما يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح.

ولقد كان رسول الله ﷺ يعيش فى جو من التوبة مستمر، ولقد روى عنه أنه كان يقول مامعناه :

«يأيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب إليه وأستغفره فى اليوم مائة مرة».

وماكانت توبة رسول الله ﷺ عن ذنب، وحاشاه ﷺ وهو المعصوم.

وماكانت توبته ﷺ عن غفلة، كلا وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه، وإنما كانت توبته توبة عبادة، وتوبة عبودية.

ومن أجل ذلك كان يكثر منها عبادة وعبودية، وكان يكثر منها ليكون فى داخل الإطار الذى رسمه الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿إن الله يحب التوابين﴾

والتوابون : هم الذين يكثرون من التوبة.

وللتوبة الصادقة خصائص :

إنها أولا تخرج حظ الشيطان من القلب ، فيصبح طاهراً بريئاً من كل دنس ، وهذا هو المغزى العميق من وراء الجدل والمماراة فى حادث شق الصدر ، وما من شك فى أن المغزى الذى نأخذه من شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه هو الطهارة الكاملة للصدر .

ونشأ رسول الله ﷺ منذ بواكير حياته مطهراً نقيًّا . وأول خصائص التوبة إذاً إنما هى الطهارة والبراءة التامة .

وإذا أخذنا شق الصدر بالنسبة للرسول ﷺ بمثابة التوبة بالنسبة لنا فإننا نقول :

إن من خصائص التوبة حينما تتكرر فى صدق وإخلاص أن تملأ القلب سكينة ، لأن الإنسان بالتوبة الصادقة يلقى بنفسه فى الرحاب الإلهى فيسكن إلى الله وكفى بالله هادياً وكفى بالله نصيراً .

إنه بالتوبة - وهى نوع من اللجوء إلى الله ، والتضرع إليه ، والإنابة - يسلم الأمر إلى الله .

وفى التوبة تسليم ، وفى التوبة توحيد ، وفى التوبة توكل على الله ، فيمتلئ القلب سكينة .

وإذا كانت الأحاديث النبوية الشريفة تقول عن شق الصدر فى المرة الأولى :

« إن الملكين استخرجا حظ الشيطان من القلب الشريف » فإنها

تقول عن شق الصدر فى المرة الثانية :

«إن الملكين ملآ قلبه الشريف سكينة».

وتتكرر التوبة فتصل إلى ما عبرت عنه الأحاديث الشريفة عن شق الصدر الشريف فى المرة الثالثة وذلك أن الملكين ملآ القلب الشريف حكمة .

وكذلك الأمر فى التوبة إذا دامت ..

ثم إنها إذا تكررت انتهت بحب الله للعبد المكثر من التوبة :

﴿إن الله يحب التوابين﴾ .

وكلمة رسول الله ﷺ : «أنا نبى التوبة».

معناها فى النهاية :

أنا النبى الذى أتيت راسما للطريق الذى يسير بالإنسان فى خطى منتظمة إلى استخراج حظ الشيطان من القلب ، ثم إلى امتلاء القلب سكينة ، ثم إلى امتلاء القلب حكمة ، ثم إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده التائب .

وأما بعد :

فإن من طرائف العقول المستبصرة ما رواه صاحب كتاب الشامل ونقله عنه الإمام ابن كثير فى تفسيره من أن أعرابياً جاء إلى الضريح النبوى الشريف وقال : السلام عليك يارسول الله ، لقد قال الله فى كتابه العزيز :

﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيما ﴾ .

وقد جئتك مستغفراً لذنبي ، مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي ، وكان جالساً بالقرب منه رجل صالح يسمع كلامه ، فأخذته سنة من النوم فرأى النبي ﷺ في النوم يقول له : « الحق بالأعرابي فبشره بأن الله قد غفر له » .

إياك نعبد وإياك نستعين

يقول الله تعالى في سورة الفاتحة :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

روى الإمام ابن كثير عن بعض السلف قوله :

« إن الفاتحة سر القرآن ، وسرها هذه الكلمة :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فالأول : أي قوله تعالى :

﴿ إياك نعبد ﴾ : تبرؤ من الشرك .

والثانى : أى قوله تعالى :

﴿ وإياك نستعين ﴾ تبرؤ من الحول والقوة ، وتفويض الأمر إلى الله عز وجل . وهذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن .. منها قوله تعالى :

﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ..

وهذه الكلمة القرآنية قد قدم الله سبحانه وتعالى لها بما يعتبر أساساً ومبرراً بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾.

والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلا له :

﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾.

ويقول سبحانه :

﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾.

ومامن شك فى أن الآية الكريمة :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾.

تعنى عناية واضحة وجوب إخلاص العبادة لله وحده ، ووجوب قصر الاستعانة على الله وحده .

والقرآن يوضح بما لامزيد عليه أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتصرف فى الكون . إنه المتصرف فى اليسير من أمر الكون وفى العظيم منه :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾.

وهو سبحانه كما يملك السماوات والأرض وكما يمسكها أن تزولا ، ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ ،

فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم :

إنه يملك البصر فى العين ، ويملك السمع فى الأذن كما يملك العين والأذن ويملك الصحة فى الجسم الصحيح ، ويملك استمرار الجاه عند ذوى الجاه ، ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله ومنع استمراره .

إن قوله تعالى :

﴿ وإليه يُرجع الأمر كله ﴾.

عام شامل .. ومن أجل ذلك :

فإن العبادة يجب أن تكون خالصة له ، وإن الاستعانة يجب أن تتمحص له ولقد رسم سبحانه الوسيلة الصحيحة للاستعانة به المثمرة :

إنها إخلاص العبادة له .. فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير والعون .. من أحب أن يستجيب الله له فليحقق العبودية له سبحانه :

فإياك نعبد : وسيلة لتحقيق ﴿ وإياك نستعين ﴾.

وفى حديث قدسى رواه الإمام البخارى توضيح لذلك ، يقول

رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه : «من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ماافترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه :

فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه» ..

وهذا الحديث الشريف يبين فى وضوح أن أحب شىء يتقرب به الإنسان إلى الله إنما هو أداء ماافترضه الله عليه ، وأن الإكثار من النوافل مع أداء الفرائض وسيلة إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده .

وإذا أحب الله إنساناً كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير ، واستجاب له إذا سأل ، وأعاذه إذا استعاذ ..

وبعد :

فإن ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ هى : تحقيق للإيمان الصحيح والتقوى الصادقة ، أى أنها الصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه .

والله تعالى يقول :

﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ، ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

اهدنا الصراط المستقيم

يقول تعالى فى سورة الفاتحة :

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

والصراط المستقيم هو صراط الله الذى رسمه سبحانه فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم .. لقد رسمه الله سبحانه منهجاً ووسيلة ، ورسمه مبادئ وقواعد ، ورسمه غايات وأهدافاً .

ونحن بهذه الآية الكريمة نتجه إلى الله سبحانه ، ندعوه أن يهدينا إلى صراطه المستقيم وذلك أنه لا يهدى إليه إلا هو : يقول سبحانه فى حديث قدسى : «ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم »

إن الهداية من الله سبحانه ، وإن من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له وإذا هدى الإنسان إلى الصراط المستقيم فقد فاز بالخير الذى أحبه الله للإنسان كاملا غير منقوص .

والصراط المستقيم هو الإيمان الصادق ، الإيمان الاتباعى :

أى الإيمان الذى تتحكم فيه التعاليم الإلهية تحكماً تاماً ، ويسير فى إطارها راضياً مستسلماً مسلماً :

﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى

أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾

إن المؤمن لايؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ فى أمور عقيدته ، وفى أمور أخلاقه ، وفى أمور تشريعه .

وحتى يتقبل ذلك فى سكينة واطمئنان وغبطة .

ويصف الله سبحانه المؤمنين الصادقين فيقول :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾

وهذا الوصف للمؤمنين يتناول وصف الأساس القلبى :

إنه إيمان لاريب فيه ..

ويتناول الأثر والمظهر :

إنه الجهاد فى سبيل ماآمن به : جهاد النفس ، وجهاد المال ، جهاد بجميع أقطار النفس ، وجهاد بكل ماتملك .

وهذه الآية الكريمة تعتبر مقياساً صادقاً لكل من أراد أن يتبين حقيقة إيمانه .

والصراط المستقيم غايته ونهايته التى يؤدى إليها إنما هى الله سبحانه وتعالى .. وقد حددها سبحانه بقوله :

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ .

وليس دون الله منتهى للمؤمن .

وغاية المؤمن — كل غايته — إنما هى الله سبحانه وتعالى .. ويبتدئ

السير إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح ، والتوبة الخالصة النصوح هى أول خطوة على الصراط المستقيم ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى :

ياعبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » .

ورسول الله ﷺ يقول - فيما رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

ويقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن الأغر بن يسار رضى الله عنه :

« يأيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

والصراط المستقيم إذن : يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح ، وليس له دون الله منتهى .

والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين مبيناً خطواتهم فى الطريق إلى الله . أو مبيناً الطريق نفسه فى تساميه وتدرجه ، فيقول سبحانه فى وصفهم :

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾ .

ثم يختم الله سبحانه وتعالى هذا الوصف بقوله سبحانه :

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

وبعد :

فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

لاتحده حدود ، ولا تقيده قيود ، فالبشرى مطلقة :

إنها بشرى الله لهم بالنجاة وبالفوز فى الدنيا وفى الآخرة .

صراط الله

يقول الله تعالى :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

وصراط الله أساسه وجوهره إنما هو التوحيد .

إن التوحيد هو أساس صراط الله الذى لايقيده زمن ، ولايحده مكان ، ومن أجل ذلك كان الأساس فى دعوة جميع الأنبياء والرسل :

يقول تعالى :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله

غيره ﴾ ويقول سبحانه :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾.

ويعمم الله سبحانه وتعالى الحكم تعميماً ، ويجعله شاملا شمولا مطلقاً فيقول :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

وهكذا كان التوحيد دعوة جميع الأنبياء والرسل .

والتوحيد الذى هو جوهر الرسالات إنما هو التوحيد الشامل العام ..

أى توحيد الله سبحانه بالإلهية ، وتوحيده بالربوبية ، وتوحيده بالسيطرة والهيمنة على كل صغيرة وكبيرة :

﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

ولايتأتى – والله مالك الملك – أن يسأل الإنسان غير الله ، أو أن يستعين بغيره ، وشعار المؤمنين الصادقين هو :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

إن شعارهم :

« إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن

الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » ..

ويوضح هذا الإمام القشيرى فيقول :

إن الله تعالى مغن عباده بعضهم عن بعض ، لأن الحوائج – على الحقيقة – لاتكون إلا إليه ، فالمخلوق لايملك لنفسه نفعاً ولاضرًّا .. فكيف يملك ذلك لغيره ؟ ..

ولهذا قيل :

« تعلق الخلق بالخلق تعلق المسجون بالمسجون » ، وقيل :

« من رفع حاجته إلى الله تعالى ، ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره ، ابتلاه بالحاجة إلى الخلق ثم نزع رحمته من قلوبهم » ..

ومعنى التوحيد الحقيقى فى النهاية :

أن يلقى الإنسان بقياده فى استسلام مطلق إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يخلص له وجهه إخلاصاً لارياء فيه .

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : « إنه الإخلاص » ..

ويقول سبحانه :

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ .

« فكل ماليس خالصاً لوجهه لايثيب عليه ، ولاينقبله » ..

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الرياء على اختلاف صوره شرك يحبط العمل .

يقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد :

« إن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الأصغر » . قالوا :

وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء .

يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم :

« اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ».

والرياء مجموعة من الآثام تنزل بالإنسان إلى مستوى من الأخلاق غير كريم ، ولقد حذر رسول الله ﷺ منه فى مختلف صوره . من ذلك ماقاله ﷺ - فيما رواه البيهقى :

« من صام يرائى فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » ..

وبعد :

فإن كل عمل لايراد به وجه الله شرك ، يتنافى مع التوحيد ، لايتقبله الله ، ولايثيب عليه .

والفيصل فى هذا هو ماحدث به رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف الذى يعتبر مبدأ هاماً من مبادئ الإسلام :

روى البخارى رضى الله عنه بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه » .

وكفى بربك هادياً ونصيراً

يقول الله تعالى :

﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾

إن الذى لاشك فيه ولا مراء هو : أن الله سبحانه كاف عبده الذى حقق العبودية له سبحانه . والقرآن الكريم يستفيض فى بيان قوانين الله سبحانه وتعالى فى كفاية الله لعبده الذى استجاب له سبحانه فى أمور الدنيا بالمشى فى مناكبها ، والسعى فيها ، والأكل من رزق الله ، وبالانتشار فى الأرض ، وابتغاء فضل الله ، وبتسخير ماسخر الله للإنسان من عوالمه الكثيرة .

ويستفيض القرآن مع ذلك – بل من قبل ذلك ومن بعده – فى بيان قوانين الله لكفاية عبده الذى حقق العبودية فى صلته به سبحانه .

ومامن شك فى أن الصلة بالله على بساط العبودية ، هى أساس كل خير ، ومصدر كل توفيق ، وهى مناط السعادة فى الدنيا والآخرة .

وإن الخطأ البين الذى يقع بعض الناس فيه عادة إنما هو ظنهم أن ثمار العبودية الصادقة إنما تتعلق بالآخرة فحسب .. ومامن شك فى أن العبودية الصادقة ثرية بالخير فى الآخرة وثمارها شهية فيها ، وما من ريب فى أن الآخرة خير وأبقى ، وفى أن أعظم الخيرات – على الإطلاق – هى أن يقابل الإنسان ربه وهو عنه راض :

﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ .

﴿ يوم لاينفع مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾

﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ﴾ .

ومع ذلك :

فإن ثمار العبودية الصادقة تتحقق فى الدنيا قبل الآخرة .

وتبدأ العبودية الصادقة بالاستغفار .. فإذا ما أكثر الإنسان من الإستغفار كانت سعة الرزق .. يقول سبحانه على لسان نبيه نوح عليه السلام :

﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ .

وإذا قرن الاستغفار بالتوبة زاد ذلك فى قوة الإنسان بل الجماعة – فضلا عن زيادته فى الرزق – يقول الله تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام :

﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

على أن فى كثرة الاستغفار أماناً من العذاب فى هذه الحياة الدنيا .. يقول تعالى :

﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

وإذا ما أكثر الإنسان من التوبة – والتوبة تضرع إلى الله وإنابة إليه – فإن الله يحبه .

﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ .

فإذا التزم الإنسان التقوى فإن الله سبحانه وتعالى يجعل له : من كل ضيق فرجاً ، ومن كل هم مخرجاً ، ويرزقه من حيث لايحتسب .

ويقول سبحانه :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ .

فإذا ماتوكل الإنسان على الله التوكل الصادق فإن الله حسبه .. يقول سبحانه :

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

فإذا ما كان الله حسبه فإن كل من دون الله لاقيمة له .. وكل تخويف بغيره لاوزن له .

فالله هو وحده صاحب التصريف .. فمن يضلله فما له من هاد ، ومن يهده فما له من مضل .. وذلك أنه سبحانه عزيز لاغالب له ، ولامنافس ، ولامنازع .. وهو يمهل ولايهمل الذين يفسدون فى

الأرض ، ويجاهرون الله بالمعصية :

إنه سبحانه ينتقم منهم :

﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ .

وبعد : فيقول الله تعالى :

﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾ » .